فشل الإسلام السياسي.. بروباجندا أمريكية

مخطط بيرنارد لويس "لوضع بذور الديمقراطية العربية" يتم اختباره في العراق

المحافظون الجدد والرؤية التوراتية للصراع في الشرق الاوسط

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا العدد تم تناول ثلاثة دراسات استراتيجية مهمة، الاولى تناولت التجارب الإسلامية الفاشلة في إدارة الحكومة والسلطة في المنطقة وما يؤدي هذا الى التأثير سلباً على شعبية وجماهيرية الإسلام السياسي بين شعوب المنطقة، وتناولت كذلك ما يمكن أن تؤدي اليه الإنتخابات والعملية الديقراطية من إحتمال صعود تيار الأسلام السياسي المعتدل الى سدة الحكم، الأمر الذي يؤدي الى إحتوائها ومن ثم فشلها المؤكد.

وأما الدراسة الثانية فتركز على أهمية الدور المحوري الذى يقوم به المستشرق اليهودي المسن برنارد لويس، الذي تم التطرق الى شخصيته وتاريخها في عدد سابق من هذه السلسلة، هذا الدور الذي له علاقة بالحرب على العراق وفرض الديمقراطية في المنطقة.

والدراسة الثالثة تأتي في سياق شعار المركز الذي يدعو الى فهم معمق وشامل للظواهر المختلفة في الولايات المتحدة كجزء مهم من عملية مواجهة التحدي الأمريكي في العالم، فتناولت هذه الدراسة القيمة تيار المحافظين الجدد ورؤيتهم التوراتية تجاه الصراع مع الكيان الصهيوني.

عناوين المواضيع

فشل الإسلام السياسي.. بروباجندا أمريكية ٤

مخطط بيرنارد لويس "لوضع بذور الديمقراطية العربية" يتم اختباره في العراق. ٨

المحافظون الجدد والرؤية التوراتية للصراع في الشرق الاوسط..... ١٥

فشل الإسلام السياسي.. بروباجندا أمريكية

شيرين حامد فهمي**

11/10/2005

لم تعد الدبلوماسية الشعبية الأمريكية هي طوق النجاة لكسب القلوب والعقول المسلمة لأن هذه الدبلوماسية، وبعد ثلاث سنوات على بدء تطبيقها، لم تستطع إقناع العالم الإسلامي بالسياسات الأمريكية. ورغم يقين المحللين الأمريكيين في وجود ازدواج بمعايير السياسة الخارجية الأمريكية وما تتبعه من سياسات ظالمة تجاه العالم الإسلامي، فإنهم لا يكفون عن ابتداع تكتيك تلو الآخر يقدمونه للإدارة الأمريكية من أجل المساعدة في كيفية تفعيل الدبلوماسية العامة وإجهاض الإرهاب.

حول هذا المحور، تحدث "دانييل إل. بايمان" الباحث الأول بمركز سابان لسياسة الشرق الأوسط في مقاله "كيف نحارب الإرهاب"، المنشور في ربيع عام ٢٠٠٥ بمجلة "ناشيونال إنتريست" الأمريكية. وهو مقال يعرض فيه "بايمان" لكتابين أمريكيين، يخلصان إلى ضرورة إحداث تغييرات جسيمة بالدبلوماسية الشعبية الأمريكية حتى يُكتب لها النجاح في كسب القلوب والعقول المسلمة. والكتابان هما: "مرشد تطبيقي لكسب الحرب على الإرهاب" للمؤلف "آدم جارفينكل" الصادر في عام ٢٠٠٤، وكتاب "الظل المنحسر للنبي: صعود وسقوط الإسلام السياسي" للمؤلفين "راي تاكيا" و"نيكولاس كاي. جفوسديف" الصادر أيضا في نفس العام.

تناقض الرسائل

لا يختلف الليبراليون والمحافظون في الولايات المتحدة على أهمية الدبلوماسية الشعبية في دحض الإرهاب، وعلى كونها أرخص الوسائل لتحقيق أكبر المكاسب. لكن هذا الطموح الكبير –كما يشير "بايمان"– لا يقابله قدرات كبيرة. وهو ما أوضحه السفير "إدوارد بي. دجيريجيان" الذي اكتشف "بوار" الدبلوماسية الشعبية الأمريكية، وافتقادها لأي إستراتيجيات واضحة.

ويرى "جارفينكل" في كتابه "مرشد تطبيقي لكسب الحرب على الإرهاب" أن مشكلة الدبلوماسية الشعبية ليست جديدة، وإنما قديمة قدم الاحتلال في المنطقة الإسلامية حيث يقول "كل سلطة غير مسلمة اختارت أن تضع يدها على الشرق الأوسط واجهت مشكلة كسب القلوب والعقول المسلمة". وينصح "جارفينكل" بتدشين حملة متواصلة من إظهار الاحترام والتقدير للإسلام، مع تعبئة المسلمين "ذوي الأصول الإسلامية العريقة" حماة لتلك الحملة.

بيد أن هذه الحملة، من وجهة نظر جارفينكل، سيواجهها بعض العوائق أبرزها أن معظم العلماء المسلمين "ذوي الأصول الإسلامية العريقة" لا يؤيدون الولايات المتحدة، وخاصة العلماء المغضوب عليهم والمطرودين من بلدانهم، وأن الإدارة

الأمريكية فشلت في إيجاد تناسق بين رسائلها الداخلية والخارجية.

ويعتبر الكاتب هذا التناقض بين الرسائل من الإشكاليات الكبرى في الدبلوماسية الشعبية الأمريكية. فمسئولو الإدارة الأمريكية يوجهون حديثهم للجمهور المسلم وكأنهم يحدثون الجمهور الأمريكي، وربما يتناسون ما تشهده سوق الإعلام من انفتاح شديد يسمح لكل كلمة بالانتقال. وهو ما كان يجب الحذر منه، فمثلا تم نقل ما قاله الزعيم الإنجيلي الأمريكي "فرانكلين جراهام" عن كون الإسلام دينا "غير أخلاقي" بسرعة البرق عبر الفضائيات، فكيف ستستطيع الإدارة الأمريكية، بعد ذلك، توصيل أي رسالة إيجابية عن الإسلام؟.

وتتجاوز مشكلة الدبلوماسية العامة، كما يشير "بايمان"، هذا التناقض لتنتقل إلى طبيعة السياسة الأمريكية ذاتها إذ يكفي القول إن هذه السياسة تقوم على مبدأين راسخين ومتلازمين هما تأييد إسرائيل، ودعم الحكومات المستبدة بالشرق الأوسط. وهي سياسات لا يمكن بيعها وتسويقها لشعوب العالم الإسلامي، مما يُحول أي دبلوماسية شعبية أمريكية إلى فشل ذريع.

انهزام الإسلام السياسي الراديكالي

في عام ١٩٦٠، ظهر كتاب بعنوان "نهاية الأيديولوجية" للمؤلف "دانييل بيل"، الذي أعلن فيه انتصار الديمقراطية الليبرالية الغربية على الشيوعية. وبالطبع لم يؤخذ هذا الكتاب مأخذ الجد خاصة في ظل الظروف المواكبة التي كانت تعلن عكس ذلك (الصواريخ الكوبية والمستنقع الفيتنامي). إلا أنه بعد انهيار سور برلين في عام ١٩٨٩، اكتشف المراقبون والمحللون أن الشيوعية لم تنهزم فقط لحظة انهيار السور، وإنما انهزمت قبله بعقود، كما كتب "بيل" في كتابه.

وعلى نفس المنوال، يكتب الآن "أوليفييه روا" و"جيل كيبيل" المتخصصان في الإسلام السياسي، إذ يرى "بايمان" أنهما يستخدمان حججا متشابهة كالتي استخدمها "بيل" في عام ١٩٦٠. فهما يعتقدان أن الإسلام السياسي قد فقد صلابته الفكرية، مما كلل جهوده بالفشل أينما كان. وإذا كانت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تُسفه من تلك الحجة، كما يقول "بايمان"، فإن قراءة كتاب "الظل المنحسر للنبي: صعود وسقوط الإسلام السياسي الراديكالي" تؤيدها وتزيدها قوة.

ففي هذا الكتاب، يذهب مؤلفاه "راى تاكيا" و"جفوسديف"، اللذان قاما بدراسة الحركات الإسلامية في كل من إيران والجزائر ومصر والسودان وأفغانستان ويوغسلافيا السابقة، إلى أن الإسلاميين في هذه الدول، على الرغم من القوة التي اكتسبوها في بعض الأحيان، لم يثبتوا نجاحهم كحركات سياسية. وهو ما عبر عنه المؤلفان عبر المقولة التالية: "إن الرؤية تزداد وضوحا على الدوام بأن الإسلام السياسي الراديكالي لا يستطيع التمكن سلطويا من الدول الحديثة أو الدول المتحولة

إلى طور الحداثة في قلب العالم الإسلامي، وأنه لا يستطيع إقامة نموذج بديل وفعال للحكم". واستدل المؤلفان في حجتهما على مثلين:

١ – فشل الإسلاميين في الجزائر:

ففي عام ١٩٩٢، قام القادة العسكريون بالانقضاض على السلطة لمنع "جبهة الإنقاذ الإسلامية" من الوصول إلى السلطة عبر الانتخابات الشرعية، الأمر الذي أدى إلى مظاهرات جماهيرية واسعة داخل البلاد وخارجها للتنديد بالنظام العسكري. أما "الجماعة الإسلامية المسلحة"، فقد اتهمت جبهة الإنقاذ بالسذاجة وعدم الشرعية لكونها تتبع الآليات الديمقراطية الغربية. وكانت الخطوة التالية هي اتجاه "الجماعة الإسلامية المسلحة" إلى استخدام العنف، مستهدفة مسئولي النظام ومثقفيه، مما أحال الجزائر فيما بعد إلى مجزرة راح ضحيتها حوالي مائة ألف جزائري. وأفضى ذلك كله إلى خسارة "القضية الإسلامية" –كما يسميها المؤلفان– بل وقوف معظم الجزائريين خلف النظام الجزائري، على الرغم من فساده وبطشه، مفضلين إياه عن "الجماعة الإسلامية المسلحة".

٢ – فشل الإسلاميين في إيران:

تمثل إيران حالة الدولة التي سطعت فيها الأيديولوجية الإسلامية ثم اندثرت بعد حين، فبدا عليها التراجع والانحسار كما نرى الآن. ففي عام ١٩٧٩، كان ميلاد الأيديولوجية الإسلامية على يد "آية الله الخميني" الذي وصل إلى السلطة بفضل شعبيته و"كاريزميته"، لا بفضل ديمقراطيته وعدله. وحينما توفي عام ١٩٨٩، جاء "آية الله خامئني" ليحل مكانه، ولم يكن ذلك انتصارا شرعيا بقدر ما كان انتصارا سياسيا لدعم نظام ولاية الفقيه. إلا أن الأيديولوجية الإسلامية لم تثبت طويلا؛ فسرعان ما أصابها التآكل والانهيار بفعل سوء الإدارة الاقتصادية وأهوال الحرب الإيرانية العراقية التي استمرت قرابة عقد من الزمن، ولم تخلف وراءها إلا الخسائر والتضحيات. وأكبر دليل على انحسار تلك الأيديولوجية –كما يشير المؤلفان– هو فوز رجل مثل "محمد خاتمي" بالرئاسة في عام ١٩٩٧، إذ اعتمد فوزه الساحق على ما دعا إليه من تعددية وخصوصية وسيادة للقانون؛ وهي أمور كلها تناقض النظام الإيراني بأيديولوجيته الإسلامية الخمينية. وعلى الرغم من عودة الفقهاء إلى مكانتهم مرة أخرى في عام ٢٠٠٤ –حينما فاز المحافظون– فإن هذه العودة لم تكن بناء على انتصار أيديولوجي وإنما بناء على انتصار سياسي. لقد باتت الثورة الإيرانية تشهد خواء حقيقيا؛ فالعلماء الإيرانيون أنفسهم – الجادون منهم – يعترفون الآن بأن نظام ولاية الفقيه قد أضر بالدولة، بل أضر بالإسلام ذاته. ويخلص المؤلفان إلى حقيقة مفادها أن الإسلام السياسي في إيران يحظى اليوم بشعبية ضئيلة جدا، مقارنة بما كان عليه من أربعة عقود ماضية، وأن الولايات المتحدة باتت تحظى بشعبية في إيران أكثر

من الدول العربية التى تتحالف أنظمتها مع واشنطن.

فشل الإسلاميين.. الفرصة الكبرى

وطبقا لهاتين التجربتين، يشير بايمان إلى أن "كتاب انحسار ظل النبي" يعيدنا إلى فكرة سابقة ساقها "جراهام فوللر" عام ٢٠٠٣ في كتابه "مستقبل الإسلام السياسي" حينما يقول "لا شيء يمكن أن يُظهر الأسلمة في صورة غير جذابة أكثر من تجربة فاشلة في السلطة". ويستدعي "فوللر" النظام الإسلامي في السودان والنظام الطالباني في أفغانستان؛ فهما نظامان وصلا إلى السلطة باسم الإسلام، ليجدا نفسيهما في النهاية بعيدين كل البعد عن الإسلام.

بكلمات أخرى، ثمة بعض الكتابات الأمريكية تشير إلى أن التجارب التي وصل إليها الإسلاميون إلى السلطة في بعض الدول الإسلامية يمكنها أن تكون دليلا للإدارة الأمريكية للنيل من الحركة الإسلامية باعتبارها تجارب فاشلة تثبت خطأ مقولة الإسلام السياسي.

إن كتاب "انحسار ظل النبي" في رأى "بايمان"، هو نصيحة لإدارة "بوش" بحسن استغلال ذلك الفشل الذريع الذي منى به الإسلاميون "الراديكاليون"؛ فهو يعتبر أعظم فرصة أمريكية للتنكيل بهم وسط الجماهير المسلمة التي لا تؤيد العنف، ولا تؤيد الولايات المتحدة أيضا.

وبحسب الولايات المتحدة أن توجه دبلوماسيتها الشعبية نحو زرع مزيد من الكره الإسلامي ضد "بن لادن" وضد الإسلام السياسي بوجه عام. وتحقيق ذلك وحده يعتبر في حد ذاته إنجازا أمريكيا في الحرب على الإرهاب، كما يشير "بايمان" الذي يوضح الهدف في قوله: "إن الهدف الأساسي للولايات المتحدة ليس هو حب المسلمين لها، وإنما هو كرههم لعدوها. وهو أمر لا يتطلب بيع أمريكا كصديق للعالم المسلم، وإنما يتطلب ما هو أسهل من ذلك بكثير...إنه يتطلب الإشارة إلى السجلات السوداء للإسلاميين، سواء في داخل السلطة أو خارجها".

ويذهب "بايمان" إلى أن تفضيل العنف من قبل "الراديكاليين" ناتج في الأصل عن إدراكهم لمستوى شعبيتهم المتدني بين الجماهير المسلمة، ومن ثم تيقنهم من فشلهم سياسيا، وعدم قدرتهم على استخدام النظام السياسي للتغيير السلمي. والسؤال الذي يطرحه "بايمان" هنا: هل ترويج الولايات المتحدة للديمقراطية في الشرق الأوسط سيساهم في دعم أتباع "بن لادن" أم في دعم أتباع "توماس جيفرسون"؟.

يرد "بايمان" هنا عبر قراءته للكتاب الأخير "انحسار ظل النبي" الذي يفترض بأن دفع الإدارة الأمريكية للعملية الديمقراطية الشرق أوسطية سيفضي في النهاية إلى انتخابات شرعية سينتج عنها إخراج الأصوات الموالية لـ"بن لادن" من اللعبة السياسية، وإظهار الأصوات الإسلامية المعتدلة التي لن تكون بالضرورة مؤيدة لواشنطن، ولكن ستكون على الأقل سلمية

و"مستنيرة". وحتى إذا وصل الإسلاميون السلميون إلى السلطة -كما يشير الكتاب- فإن وصولهم سيكون إيذانا بخسارة قضيتهم وفقدان مصداقيتهم؛ وذلك لعدم تمكنهم سياسيا كما أوضحنا على لسان المؤلفين من قبل.

ومن ثم، فإن دعم الإدارة الأمريكية للعملية الديمقراطية الشرق أوسطية سيساعد -كما يقول الكتاب- على تحقيق مصلحتين أمريكيتين، أو ضرب عصفورين بحجر: الأولى أنها ستُقصى الأصوات الراديكالية؛ والثانية أنها ستوصل المعتدلين إلى السلطة، والذين لن يُظهروا، في الغالب، قدرات سياسية مناسبة. وهو الأمر الذي يجب أن تستغله الولايات المتحدة في حربها على الإرهاب وفي كسب التأييد في العالم الإسلامي وفي معركة العقول والأفكار.

**باحثة دكتوراة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.

إسلام ديلي

مخطط بيرنارد لويس "لوضع بذور الديمقراطية العربية" يتم اختباره في العراق.

الكاتب: بيتر ولدمان
بتاريخ: ٢٠٠٤/٢٨/٠٤

بيرنارد لويس .. مؤرخ بجامعة برينستون ، ألف أكثر ٢٠ كتابا عن الإسلام والشرق الأوسط .. الذي عادة ما يتحدث عن نقاش دار ذات مرة بينه وبين مجموعة من العرب في الأردن حول نقاش مألوف في تلك المنطقة من العالم.

يقول لويس مقتبسا عن الأردني الذي تحدث معه "يمكننا الانتظار فمازال لدينا الوقت ، لقد تخلصنا من الصليبيين ثم تخلصنا من الأتراك والآن سوف نتخلص من اليهود"

يتابع لويس أنه بعد سماعه هذه الادعاءات لكثير من الأوقات ، رد قائلا : " معذرة ، أنت تفهم تاريخك بشكل خاطئ ، فالأتراك هم من تخلصوا من الصليبيين ، والبريطانيين هم من تخلصوا من الأتراك ، واليهود بدورهم تخلصوا من البريطانيين ، وترى من سيأتي بعدهم؟

ويروي الحديث بلهجة بريطانية أصيلة ، المؤرخ برنارد لويس ، البالغ من العمر ٨٧ سنة، والذي لا تفارقه الضحكات وبرغم ذلك فهو يخبرنا هذا الحديث ليؤكد على نقطة جادة وهي أن معظم البلاد الإسلاميّة فشلت بشكل مخزٍ في تحديث مجتمعاتها، داعيا الغرباء – الأمريكان – للتدخل ونقلها إلى الديمقراطية.

يمكنك أن تسمي ذلك "مذهب لويس" ، فبالرغم من أنه لم يناقش في الكونجرس أو تم التصديق عليه بقرار رئاسيّ إلا أن تشخيص السيّد لويس لعلة العالم الإسلامي و ندائه لغزو عسكريّ أمريكيّ لوضع بذور الديمقراطية في

الشّرق الأوسط، ساعد في بلورة النقلة الجريئة في السّياسة الخارجيّة الأمريكيّة في ٥٠ عاما ، والآن يضع احتلال العراق "مذهب لويس " موضع الاختبار.

لفترة طويلة من النصف الثّاني للقرن الأخير كانت أمريكا ترى الشّرق الأوسط و باقي العالم من خلال المفهوم الذي صاغه جورج كينان، صاحب مبدأ الاحتواء ، في مقال شهير عام ١٩٤٧ في الشّؤون الخارجيّة والذي ركّز على الاتّحاد السّوفيتيّ، كان المستر كينان قد صاغ هيكلا للسّياسة الخارجية الأمريكيّة في الحرب الباردة، واضعا الحاجة لاحتواء الطّموحات السّوفييتيّة في المقدمة.

أما الآن فقد حل الإرهاب محل موسكو كعدو عالمي، وبعد أن فاقت أمريكا السوفييت في أن تصبح القوة الوحيدة المهيمنة على العالم، لم تعد تكتفي بمجرد الاحتواء وإنما تخطت ذلك إلى التصدي والهزيمة والتغيير، كما أن الكيفية التي ستنجح بها أمريكا في إعادة تشكيل العراق وباقي منطقة الشرق الأوسط سيكون لها تأثير على نوع السياسية التي ستنتهجها القوة العظمي (أمريكا) في العقود القادمة فيما إذا كانت سياسة جريئة و حازمة نحو الخارج أو دفاعيّة وانعزالية موجهة للداخل.

كمعلم و مستشار ودّيّ لبعض المسئولين الأمريكيّين الكبار، ساعد المستر لويس بملاطفته البيت الأبيض أن يبعث عقودا من التفكير في النظم العربية واستعمال القوة العسكرية الأمريكية ، فقد ذهب بفكرته أن السّياسة الأمريكيّة في المنطقة الغنيّة بالنّفط ينبغي أن تستقر قبل كلّ شيء، حتّى إذا استدعى ذلك مصادقة طّغاة المنطقة كما ذهب أيضا إلى أن تشجيع القيم الدّيمقراطيّة في هذه الأراضي قد يزعزع هؤلاء الطغاة بدلاً من مصادقتهم، إن مذهب لويس يرى أنّ رعاية الدّيمقراطيّة في الشّرق الأوسط ليست فقط رشيدة وعاقلة بل إنها قسرية وإلزامية أيضا.

بينما اضطرب صنّاع السّياسة الأمريكية سريعا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بشأن كيفية تعاملهم وتفهمهم للعدو الجديد ، ساعدهم المستر لويس في إيجاد الحل ، فإذا كان وصفته صحيحة ، فإن الولايات المتّحدة قد تكون قادرة أن تهزم الإرهاب وتساعد في استقرار المنطقة التي تعد المصدّر الرّئيسيّ للبترول والطاقة للدول الصناعية بما يدعم قيادة أمريكا للنّظام الاقتصاديّ. أما إذا كان المستر لويس مخطئا كما يزعم منتقدوه، فإن أمريكا تكون خاطرت بنزاعات من شأنها أن تثير الإرهاب بشكل أكبر وتضعف أمن الطّاقة.

بعد الهجمات الإرهابيّة، اختلف مسئولو البيت الأبيض حول كيفية تورّط العدوّ، يقول ديفيد فرم الذي كان كاتب لخطب للرّئيس بوش : اعتقدت إحدى الجماعات أنّ غضب المسلمين كان نتيجة سوء فهم في أن المسلمين يرون أمريكا خطأ على أنها منحلّة و ملحدة ، وهؤلاء يرون الحل في بدء حملةً شاسعةً لتعريف المسلمين بفضائل أمريكا الحقيقيّة .

وقد قللت الصحافة على نطاق واسع من أهمية هذا الحل فتم التخلي عنه بهدوء.

ويقول فرم: أن هناك جماعة أخرى يرأسها السياسي كارل روف ترى أن جوهر المشكلة يكمن في البحث عن الأسباب التي جعلت المسلمين يكرهوننا، وهي بذلك تضع الأمور في غير نصابها على حد قول فرم.

وقد استدعي كل من المستر روف، والمستر لويس لإلقاء محاضرة على مجموعة من موظفي البيت الأبيض والمساعدين العسكريّين و موظّفي مجلس الأمن القومي .

وتناول برنارد لويس حالات الفشل الحديثة لمجتمعات عربيّة ومسلمة وقال أن مناهضة الأمركة نشأت من عيوبهم وليس أمريكا، كما اجتمع المستر لويس أيضًا بشكل خاصّ مع مستشارة الأمن القوميّ للرئيس بوش، كوندوليزا رايس، يقول المستر فرم أنه لاحظ مؤخرا أن الرئيس بوش كان يحمل مقالا بإمضاء برنار لويس بين مجموعة أوراق خاصة فيما رفض متحدّث باسم البيت الأبيض التّعليق على ذلك.

يقول السّيّد فرم: " إن برنارد لويس جاء بتفسير قوي جدا لأسباب هجمات ١١ سبتمبر، بمجرّد أنّ تفهمه ستعرف أن السّياسة تفسر نفسها فيما بعد..." ، فشروحاته و السّياسات التي ساعدت على بلورة اقتراحه تعد بمثابة ممثل أصيل لمذهب الاحتواء الذي ساد أثناء الحرب الباردة ، حيث كان يرى المستر كينان – صاحب مبدأ الاحتواء– أنه لا يوجد تكلف في سلوك السياسة الخارجية للدولة فالتهديدات أو المبادرات الانفعالية تتطلب صلابة خارجية تعتمد على نظرة تشاؤمية بدرجة تجعل العدو الأكثر تهورا لا يخاطر بإثارة الحرب مع الولايات المتحدة القوية آنذاك.

فمذهب لويس لا يفترض عقلانية العدو ويتصور أن الصدام ليس بسبب المصالح أو حتى الأيديولوجية وإنما هو صدام ثقافات، فقد كتب المستر لويس أن لدى أمريكا خيارين لمجابهة الإرهاب في الشرق الأوسط، وكلا الخيارين مرير فإما أن تتعمد القسوة أو تخرج من المنطقة، وهو يشاطر في ذلك الرأي كلا من خبيري الشرق الأوسط الأمريكيين الشهيرين فؤاد أجامي و ريتشارد بيرل.

ففكرة بيرل الرئيسية – حسب مقال له في ١٩٩٠– هي أنّ المسلمين غاضبون منذ عام ١٦٨٣م ، عندما فشل العثمانيّون للمرّة الثّانية لفصل فيينّا المسيحيّة. فالإسلام كان متأهّبا للصراع منذ ذلك الحين، كما تحدث لويس في مقاله عن "صدام حضارات" .. ذلك المفهوم الذي بلوره عالم هارفارد السياسيّ صموئيل هانتجتون.

ويتابع المستر لويس أن المسلمين ظلوا لمدّة ٣٠٠ سنة ، يعانون الخوف والمهانة حيث سيطرت الحضارات المسيحية لأوروبا وأمريكا الشمالية عليهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا وأيضا من الناحية الثقافية.

ويقول المستر لويس في حديث لشبكة تليفزيون "سي سبان" بعد فترة قليلة من أحداث

١١ سبتمبر " إن سؤالا خاطئا يطرح دائما هو لماذا يكرهنا المسلمين؟ بالرغم من أن هذا الكره طبيعي جدا حيث التنافس الألفي (أي لقرون طويلة) بين الديانتين العالميتين (الإسلام والمسيحية) والآن من وجهة نظر خاطئة يظن المسلمون أن الإسلام سيربح.

ويتابع لويس "عموما وفي الغالب ليس من الممكن أن تكون ناجح وقوي وغنى وفي نفس الوقت تكون محبوب بشكل خاص من قبل أولئك الذين ليسوا بأغنياء أو أقويا أو ناجحين ، لذلك فالكراهية شيء بديهي تقريبا.. والسؤال الذي يجب أن نطرحه الآن هو لماذا لا يخافنا المسلمين ولا يحترموننا؟!".

وبالنسبة للمستر لويس ومنّ تأثر بفكره من المسئولين فإن غرس الاحترام أو على الأقل الخوف من خلال استخدام القوة ضروري لأمن أمريكا. وفي هذا المذهب قد يسمى العصر الحالي من الهيمنة الأمريكية بـ " قبلة السلام الأمريكي" وذلك على غرار مقولة " قبلة السلام البريطاني " الذي روجته الإمبراطورية البريطانية حيث عمل المستر لويس كضابط استخبارات صغير بعد التخرج.

يقول ريشارد بيرل – الذي ترأس مجلس السياسات الدفاعية – أنه بعد ثمانية أيام من هجمات ١١ سبتمبر، ولم يزل بعد الدخان متصاعدا من وزارة الدفاع الأمريكية ، ناقش المستر لويس أمام لجنة السياسة الدفاعية الأمريكية هو وصديقه الزعيم المنفى العراقي أحمد الجلبي – أحد أعضاء مجلس الحكم العراقي الآن– سبل السيطرة العسكرية على العراق لتفادي عمليات إرهاب أسوأ في المستقبل.

وبعد أشهر قليلة وفي عشاء خاصّ بمنزل نائب الرئيس الأمريكي ديكّ تشيني ، أعرب المستر لويس عن تفاؤله الحذر بإمكانية إرساء أمريكا للديمقراطية بشكل تدريجي في العراق ، وحسبما ذكر آخرون ممن حضروا اللقاء فقد أسهب المستر لويس أيضا في الحديث عن مخاطر الظهور في موقف الضعفاء في العالم الإسلامي، وعلى ما يبدو فقد تعلم تشيني الدرس جيدا. حيث يقول تشيني في حديث له مع شبكة إن بي سي قبل غزو العراق مباشرة: " أنا اتفق بشدة مع بيرنارد لويس، الذي يعد من أكبر الدارسين لذلك الجزء من العالم، في أن الرد الأمريكي القوي على الإرهاب و التهديدات ضد الولايات المتّحدة سوف يقطع شوطا طويلا لتهدئة الأوضاع في ذلك الجزء من العالم".. ففي الواقع مذهب لويس أضحى سياسة أمريكية.

يقول ريتشارد بيرل الذي يعد مستشارا قريبا لوزير الدفاع لأمريكي دونالد رامسفيلد: "أن بيرنارد لويس كان صاحب التأثير الأهم والأقوى في مواجهة إعمال الحكمة التقليدية في إدارة الصراع بين الإسلام الراديكالي والغرب، فالفكرة الهامة والتي تعد الجزء الأكبر من المشكلة هي هدم المجتمعات على الجانب العربي الأمر الذي لا تتبناه المؤسسة الدبلوماسية."

المستر لويس رفض مناقشة اتصالاته الرسمية في واشنطن عندما علم أن مجمل تأثيره السياسي تركز في هذا المقال فقد رفض طلب مقابلة صحفية قائلا : "مازال الوقت مبكرا جدا ، دعونا نرى كيف تسير الأمور في العراق" .

ومع ذلك واصل المستر لويس الدعوة للأعمال الأمريكية الحازمة في الشرق الأوسط، من خلال المحاضرات والمقالات، لكن من المحتمل أن يظل التأثير الطويل المدى لبرنارد قائما لسنوات قادمة سواء بقي مؤيدوه المحافظون الجدد في البيت الأبيض أم لم يبقوا.

ولد برنارد لويس في لندن عام ١٩١٦، وانجذب إلى دراسة التأريخ واللغات الأجنبية بفضول عميق، حيث يقول في مقابلة له مع شبكة "سي سبان" في أبريل " درست كيف تبدو الأشياء على الجانب الآخر".

نال درجات جامعية ودكتوراه في دراسات الشرق الأوسط والتاريخ الإسلامي من معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، ثمّ قضى خمس سنوات مسئولا عن قضايا الشرق الأوسط في المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية.

ويؤكد لويس في محاصرة له بجامعة تورنتو الربيع الماضي أن خطابات مناهضي الحرب في العراق ذكّرته بمعارضة نشطاء السلام للحرب في الثلاثينات ، فيقول: "كلّ ما أستطيع قوله هو أن أشكر الله أن هؤلاء لم ينتصروا، فلو حدث ذلك لانتصر هتلر وكان النازيون يحكمون العالم الآن."

وفي عام ١٩٤٥، عاد المستر لويس إلى جامعة لندن كأستاذ، حيث اكتسب شهرة في مجال التاريخ العثماني والتركي. ثم انتقل إلى جامعة برينسيتون في عام ١٩٧٤ وأصبح مستشارا مقربا للعديد من أولئك المعروفين الآن بالمحافظين الجدد.

ويقول ريتشارد بيرل أن يتذكّر أنه سمع المستر لويس يتكلّم في أوائل السبعينات ويدعوه لتناول الغذاء مع رئيسه آنذاك، السّيناتور الراحل هنري "سكوب" جاكسون من واشنطن .. يضيف بيرل : "أصبح لويس تقريبا بمثابة المرشد الروحي لجاكسون ، كما كان مستشار إلى ديموقراطي أخر وهو الراحل دانيال باتريك موينيهان عندما كان المستر موينيهان سفيرا للأمم المتّحدة في السبعينات، وحينها أقام لويس روابط قوية مع العديد من مساعدي جاكسون وموينيهان والذين ساروا على نهج لويس وطبقوا وجهات نظره في العراق ومن هؤلاء نائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز، ومسئول قضايا الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي الأمريكي إليوت أبرامز، والمسئول السابق بوزارة الدفاع الأمريكية فرانك جافني الابن. يقول بيرل : "إن حديث لويس بمثابة إلهام ووحي".

تقاعد المستر لويس من التدريس عام١٩٨٦ لكنه أبقى على علاقاته مع العديد من تلامذته

السابقين الذين أصبحوا في مناصب مرموقة ، أحد هؤلاء هو هارولد رود المحلّل بوزارة الدفاع الأمريكية الذي عمل كمستشار لنائب وزير الدفاع الأمريكي بول وولفويتز للشؤون الإسلامية، كمخطّط لاحتلال العراق ، وكمساعد لأندرو مارشال الخبير الاستراتيجي بوزارة الدفاع ، وكان المستر لويس قد جعل كتابه الأخير "أزمة الإسلام، " وقفا على استعمال المستر رود الذي يقول إن المستر لويس "بمثابة أبّ لي."

كما أن برنارد لويس أيضا على مقربة من الدوائر الحكومية في إسرائيل وتركيا ، تلك الدولتين غير العربيتين اللتين يصفهما لويس بأنهما "الدول العصرية الناجحة الوحيدة في المنطقة" ، حيث يمدح كمال أتاتورك بشدة مثنيا على تحويله تركيا لجمهورية علمانية بعد الحرب العالمية الأولى من خلال قمع الإسلام. (ويقول أيضا إن قتل الأتراك العثمانيين أيضا لحوالي ١,٥ مليون أرمني عام ١٩١٥ لم يكن إبادة جماعية لكنه كان ناتجا عَرَضيا وحشيا للحرب. وقد كان لمحكمة فرنسية موقف أدانت فيه لويس عام ١٩٩٥ بموجب قانون إنكار الهولوكوست الفرنسي من خلال عقوبة رمزية) يقول الخبراء الإسرائيليين إن اتصالات المستر لويس مع الجنرالات والسياسيين الأتراك ساعدا على تدعيم الروابط العسكرية الإسرائيلية التركية في التسعينيات.

أصبح برنارد لويس سياسيا متورطا مع إسرائيل منذ منتصف السبعينات، عندما كتب مقالة لمطبوعة خاصة باللجنة اليهودية الأمريكية. في وقت كانت فيه إسرائيل كيان ميت في حال وجود دولة فلسطينية، أوصى حينها بأنّ تختبر إسرائيل الرغبة لدى منظمة التحرير الفلسطينيّة في التفاوض من أجل إنشاء دولتين كحل للصراع.

ومع ذلك فإن المستر لويس كتب أيضا "بأن العرب الفلسطينيّين ليس لديهم سند تاريخي لدولة لأن فلسطين لم تكن موجودة قبل الحكم البريطاني في ١٩١٨" ومن هنا قفز زعماء إسرائيل على ذلك الجزء من أطروحته ،حيث يقول أمنون كوهين من الجامعة العبرية في القدس والذي عمل لدى الحكومة العسكرية في الضفة الغربية: أن رئيسة الوزراء الإسرائيلية الراحلة جولدا مئير طلبت من مجلسها قراءة المقالة، ويضيف أن مئير استدعت لويس وتكلّموا لساعات وبينما حاول مساعدوها إنهاء الحوار استمرت جولدا مئير في الحوار كما أن بيرنارد لم يرد أن ينهي الحوار بشكل غير مهذب حيث كانت مئير معجبة جدا ومستحسنة لفكرته بأن " فلسطين كدولة ما سبق أن وجدت".

بدأ المستر لويس بقضاء أشهر في مركز دايان بجامعة تل أبيب في الثمانينات ، ثم أصبح مستشارا لرؤساء وزراء إسرائيليين متعاقبين بما فيهم أريل شارون ، كما ينظم آمنون كوهين مؤتمرا سنويا في الجامعة العبرية احتفالا بعيد ميلاد المستر لويس.

وقد شارك ولفوويتز في هذا المؤتمر عبر الفيديو في عام ٢٠٠٢. في إشارة على

استحسان الإدارة الأمريكية لـ"وصفة" المستر لويس بشأن العراق، حيث يقول السيد ولفوويتز : " لقد تعلم بيرنارد كيف يفهم التاريخ المعقّد والمهم للشرق الأوسط، ويستعمله لتوجيهنا للعمل على بناء مستقبل أفضل للأجيال القادمة".

وقد تناول العديدون كتابات المستر لويس بالنقد، حيث يقول بعض الأكاديميين أن تصوير لويس لحالات الفشل العربية والإسلامية تمثل صورة مصغرة لما قاله المستشرق الراحل إدوارد ، بجامعة كولومبيا من "استغلال مفارقات التاريخ لتبرير الغزو الغربي".

وبالرغم من أن جوان كول أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة ميتشغان يمتدح أعمال لويس المبكرة لكنه يقول أن كتاباته الأكثر شعبية في السنوات الأخيرة تهتمّ فقط بتصوير المسلمين بشكل كاريكاتوري على أنهم خاسرون فقراء، عاجزون وغاضبون.

السّيد كول أيضا من بين أولئك الذين يقولون أن دعوات لويس للتدخل العسكري لتحويل أخطار الدول الإسلامية الفاشلة من شأنها أن تجعل ثقافة الصراع بين الدول الإسلامية والغرب على نحو أسوأ.

وحتى الآن – والكلام لكول- يدّعون بأن العراق تبدو تربة خصبة للإرهاب أكثر منها مكان للديمقراطية ولا غرابة في قولهم أن ذلك يبرر للولايات المتّحدة غزو حضارة قديمة وعظيمة كالعراق.

يقول جوان كول :" إن المستر لويس عاش كثيرا ومما وفر له سبل الحياة في هذا العصر وجود مجموعة في واشنطن تزكي فكرة الإمبراطورية" ويضيف كول "إن لويس لم يفهم حقائق التعبئة السياسية والاجتماعية كما أن طريقهم هذا سيبني إمبراطورية لا يمكن الاحتفاظ بها."

يقول إلان باب من جامعة حيفا إن رؤية المستر لويس بأنّ الثقافات السياسية يمكن أن يعاد بلورتها من خلال القوة العسكرية قد ساهمت في قرار إسرائيل بغزو لبنان في ١٩٨٢.

ويضيف باب " لقد استغرق الإسرائيليون ١٨ عاما وتكلفوا ١٠٠٠ جندي قتيل للتخلي عن هذه الإستراتيجية، وإذا عمل الأمريكيون بنفس الاستراتيجية في العراق، فإنهم سيفشلون من حيث فشل الإسرائيليون"

بعد أحداث ١١ سبتمبر أصدر لويس كتاب بعنوان "ما حدث من خطأ" وكان الكتاب الأكثر رواجا والذي أطلقه المؤرخ في عمر ال٨٥ عاما بينما لم يكن من المتوقع أن يحقق شهرة، فبذكاء ومراوغة وحنكة في الحوار جادل لويس لمصلحة التدخل الأمريكي في العراق كخطوة أولى نحو التغيير للديمقراطية في الشرق الأوسط.

اكتظت القاعة الرئيسية في نادي هارفارد بنيويورك في الربيع الماضي بالحضور الذي جلسوا يتناولون المشروبات منتظرين كلمة المؤرخ برنارد لويس.

وتحدث لويس حينها قائلا :"من الناحية التاريخية، الاستبداد كان دخيلا على الإسلام، بينما تعاقب الحكومات في المنطقة بدون انتخابات له جذور عميقة في الشرق الأوسط. وتابع برنارد لويس أن العراق، بثروته النفطية، والرعاية البريطانية السابّقة والقمع الطويل تحت حكم صدام حسين، كان المكان الأمثل للبدء بتحريك الشرق الأوسط نحو نظام سياسي مفتوح.

وفي اليوم الذي سقطت فيه بغداد في أيدي القوات الأمريكية حينما سألت إحدى السيدات ، المستر لويس عن إمكانية أن يجعل النصر الأمريكي العرب أكثر عنفا، عندها تجاهل المستر لويس السؤال بشكل مؤدّب.

ووجه هنري كسينجر – متناولا شرابه – تساؤله للمستر لويس أنه بعد أن أصبحت النية الأمريكية لإعادة تشكيل الشرق الأوسط ، هل يجب أن نتفاوض مع آيات الله في إيران؟ فأجاب لويس "بالتأكيد لا!.

ومن على المنصة انتقد برنارد لويس بشدّة اعتقاد بعض خبراء الشرق الأوسط بوزارة الخارجية وفي أماكن أخرى أن العرب ليسوا جاهزين للديمقراطية – وأضاف مازحا: " كان "الطاغية الصديق" أفضل ما تتمناه أمريكا للعراق.. فهذه السياسة، هي "تأييد العرب".

وتابع : " آخرون مثلي يؤمنون أن العراقيين ورثة حضارة عظيمة، ومؤهلة بكل معنى الكلمة مع بعض التوجيه للحكم الديمقراطي..مضيفا بابتسامة بائسة " هذه السياسة هي "الإمبريالية".

صحيفة وول ستريت جورنال ٤ فبراير ٢٠٠٤

إسلام ديلي

المحافظون الجدد والرؤية التوراتية للصراع في الشرق الاوسط

الكاتب: د.عبدالغني عماد/ اكاديمي لبناني

بتاريخ: ٢٠٠٤/٢١/٠٧

مقدمة

هذه مقاربة تسعى الى رصد واقع القوة الاميركية ومحاولات المحافظين الجدد لتوظيفها في آلية الصراع في الشرق الاوسط.ولئن كانت هذه المقاربة، تنطلق من زاوية تقارن بين صعود الامبراطوريات وهبوطها، الا ان المقاصد الاساسية التي تسعى للوصول اليها، تكمن في استغلال المحافظين الاميركيين الجدد لمنطق القوة وتجيره لصالح "اسرائيل" في المنطقة العربية ــ الاسلامية، وذلك انطلاقا من مجموعة رؤى توراتية، اهمها الايمان بمعركة هرمجدون. قبل بداية الحرب الكورية بقليل، اعدت في العام ١٩٥٠ الوثيقة التي تحدد الرؤية الاستراتيجية للهيمنة، وتمثلت في مذكرة لمجلس الامن القومي، والتي حررها بول نيتز، الذي حل محل كورج كنعان على راس هيئة تخطيط

الدول، والذي ابعد لانه اعتبر من الحمائم، وكان قد كتب في العام ١٩٤٨ تعبيرا عن هذه الرؤية ما يلي: "اننا نمتلك ٥٠ بالمئة من الثروات العالمية، ولكننا نمثل ٦,٣ فقط من سكان الارض؟ وفي هذا الوضع لا يمكن الا ان نكون هدفا للحسد والنقمة. فمهمتنا الحقيقية في المرحلة القادمة هي تنمية نظام من العلاقات يتيح لنا المحافظة على هذا الوضع من عدم المساواة، من دون ان نعرض امتنا للخطر الوطني، ولتحقيق ذلك يجب ان نتخلص من كل رقة عاطفية، ونركز على اهدافنا الوطنية، ويجب ان نكف عن الحديث حول اهداف مبهمة مثل حقوق الانسان وتعميم الديموقراطية، واليوم الذي يجب علينا فيه ان نتصرف وفقا لمعايير القوة ليس بعيدا، ومن الافضل لنا عند ذلك ان نبعد عن انفسها مضايقات الشعارات المثالية". هذه الرؤية الاستشراقية، رفضت في ذلك الحين، علما ان المؤشرات على الارض لا تفيد بذلك، الا ان ما قيل حينها: ان هذه الرؤية ممثلة لتيار "الحمائم."اما "الصقور" فتمثلت رؤيتهم بما اعده بول نيتز الذي حدد الاهداف بوضوح: "تمتلك الولايات المتحدة، قوة عالمية، ومن الضروري ان نحدد لها عدوا اجماليا ــ وهو في ذلك الحين الاتحاد السوفياتي ــ وتجسيد اخطاره وتجسيمها بحيث يبرر ذلك كل تدخل من الولايات المتحدة او هجوم منها، كرد فعل على تهديد شامل تتعرض له كطليعة للعالم الحر". هكذا حددت اهداف الحرب الباردة بوضوح، امبراطورية الشر هي الاتحاد السوفياتي، والنزاع "بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط جمهوريتنا وانما الحضارة نفسها. والهجمة على مؤسسات العالم الحر شاملة، وتفرض علينا من اجل مصلحتنا الذاتية مسؤولية ممارسة الزعامة العالمية."

منذ ذلك الحين جرى تأكيد مبدأ سيادة جديد، مختلف عن نظيره الاوروبي، حيث جرى تعريف السيادة، على انها ديمقراطية جذرية في اطار عملية توسع مفتوحة ومستمرة، حسب وصف مايكل هارت وانطونيو نيغري في كتابهما الجديد، والذي كان الاكثر مبيعا في اوروبا في العام ٢٠٠١، وهو بعنوان "الامبراطورية، امبراطورية العولمة الجديدة"، والذي يعالجان فيه بتوسع وتحليل ثاقب قيام مشروع الولايات المتحدة وتحولها الى امبريالية معولمة. يرى صاحبا الكتاب ان الفضاء الاميركي لم يكن فسيحا فحسب، بل فضاء بلا حدود، انه "بوتقة اذابة" لعملية تهجين مستمرة. فقد شكل استعباد الزنوج، ممارسة مستمرة موروثة عن القوى الكولونيالية رغم تأكيد الدستور على المساواة في الحقوق المدنية.تتجلى طبيعة هذا التنافر في الحل الوسط الغريب التي لم يتم التوصل اليه لدى كتابة الدستور، الا بعد مفاوضات شاقة ومضنية، والذي قضى بان السكان العبيد يشكلون وزنا في تحديد عدد ممثلي كل ولاية في مجلس النواب، ولكن بنسبة يكون معها كل عبد مساويا لثلاثة اخماس الشخص الحر، وكافحت الولايات الجنوبية لرفع هذه النسبة الى اعلى حد ممكن لزيادة نفوذها في الكونغرس، في حين سعى الشماليون الى خفضها، في المقابل دفع السكان الاصليون

اكثر فاكثر الى معازل وتم حصارهم في حظائر اصغر فاصغر. كان هذا بالفعل مفهوما غريبا للحرية ذات الفضاءات اللامحدودة في مواجهة" عدو" للحرية مفترض. ومع مبدأ "مونرو" اصبحت امبراطورية الحرية صاحبة مشروعات امبريالية مباشرة، وقد جرى تقديم هذا المبدأ كتدبير دفاعي ضد النزعات الكولونيالية الاوروبية، وبموجبه لن تعتبر، بعد الان، القارة الاميركية عرضة للاستعمار من جانب اي قوة اوروبية، ومعه تحولت اميركا عبر الشعار الذي ارفقه ثيودور روزفلت بالمبدأ، ذلك الشعار الذي يزعم ان الولايات المتحدة اصبحت قوة بوليسية دولية، او شرطي العالم.وما لبث هذا الاغراء الامبريالي، او الالتباس بين الحامي والمتسلط في الحقيقة، ان اصبح خلال الحرب الباردة اكثر عمقا واتساعا، حيث اصبحت "حماية" بلدان العالم من خطر الشيوعية لا تفترق كثيرا ولا تتميز عن "السيطرة"او "الهيمنة" عليها واستغلالها باساليب وتقنيات امبريالية، وكان تورط الولايات المتحدة في فيتنام اوج هذا النزوع.انتهت مغامرة الولايات المتحدة في فيتنام بالهزيمة طبعا. ففي مأثرة خارقة للعادة، وبقوة وجرأة غير مسبوقتين، تعارك الفيتناميون مع قوتين امبرياليتين وخرجوا منتصرين، على الرغم من ان ثمار ذلك النصر بدا انها شديدة المرارة. شكلت الهزيمة المذلة للولايات المتحدة آنذاك النهاية لسلسلة المغامرات الامبريالية للولايات المتحدة على النمط الكولونيالي الاوروبي. وفي الحقيقة لم تؤد الحرب الباردة التي شنتها الولايات المتحدة الى هزيمة العدو الاشتراكي، فقد انهار الاتحاد السوفياتي تحت وطأة تناقضاته الداخلية الخاصة، ولم تفعل الحرب الباردة، في حدودها القصوى، اكثر من افراز بعض شروط العزلة التي ما برحت ان ضاعفت تلك التناقضات القابلة للانفجار. لقد انفتحت بعد ذلك الابواب امام الولايات المتحدة لتأسيس نظام "امبراطوري" وتم الاعداد لنمط جديد من المبادرات "المهيمنة" حين بدا لها انها خرجت من الحرب الباردة منتصرة، ومن حينها اصبح دور "الشرطي، ملقى على عاتق الولايات المتحدة.ففي حرب الخليج مارست اميركا هذا الدور بشكل كامل، وهي انتجت حق "فوق قومي" لها، مع اضفاء الفاعلية القانونية له عبر الهيمنة على مؤسسات الشرعية الدولية. يؤكد هارت ونيغري ان الدستور الاميركي امبراطوري وليس امبرياليا، لانه قائم على غزو وتدمير البلدان التابعة وادخالها قسرا في حظيرة سيادته، وفكرة الامبراطورية خرجت من رحم التوسع العالمي لمشروع الولايات المتحدة، نعيش اليوم من خلاله اولى مراحل تحول الحدود العالمية الى فضاء سيادة امبراطورية مفتوح ورحب.

وقد هيأت السيطرة الكلية على الصحافة والاعلام وتقنيات الاتصال الحديثة، قبول "الرأي العام" لفترات طويلة لهذه النظرة الى العالم، باعتباره عالما يواجه "امبراطورية" الشر السوفياتية. ويشير ميشال بوغنون في كتابه الخطير والجديد والصادر حديثا بالعربية (اميركا التوتاليتارية، الولايات المتحدة والعالم الى اين؟ (الى استراتيجية الهيمنة وايديولوجيا

التوسع رؤية تحليلية ثاقبة، ويشير في احد الفصول الهامة في الكتاب الى فن صناعة الرأي العام ودوره في قولبة التفكير وتنميط المواقف، والى تزوير كفن كبير مارسته الولايات المتحدة باحتراف وتقنية عالية. وهو يعتبر ان النجاح الاول لها كان في مجال الاتصال والاعلام، فهي، على الرغم من تجاوزاتها لمبادئ الشرعية الدولية، توصلت الى خداع الشعوب، وهم مدينون بذلك الى خبرة طويلة في مجال الاعلان، واحتكار كبريات وكالات الصحافة الدولية وقوتهم المالية، وبالطبع الى سلبية الاجهزة الاعلامية الموازية في مجمل العالم. ومنذ ان اصبح التلفزيون اداة مثاقفة قوية، وهوليود صاحبة مدافع اعلامية "عابرة للقارات"، اصبح نمط الحياة الاستهلاكية الاميركية قابلا للتصدير، وبلا منافس جدي يحمي العقول من التزوير والقولبة والتنميط مما خرب الذوق، وهو ما اشار اليه فيليب سولر في كتابه" حرب الذوق" الصادر عام ١٩٩٥.

اذا، تحتاج الولايات المتحدة لعدو توجه ضد المدافع الاعلامية والسياسية والعسكرية، هذه الالة الضخمة يجب ان تشتغل وتنتج، والا اصابها التآكل، لا بد لها من عدو يجسد "الشر"، فاذا لم يكن موجودا، يفقد الخير "المفترض" مبرر وجوده، لذلك ولو لم يكن هذا العدو موجودا لوجب اختراعه. سقوط الاتحاد السوفياتي كاد يحرمها من هذه المعادلة، لكنها سرعان ما اعادت انتاج مقولة "امبراطورية الشر" بتعديلها لتصبح "محور الشر". تغيرت التركيبة العالمية، وان لم تستقر بعد، الا انها استهدفت ايجاد عدو بديل. كانت حرب الخليج، التي خاضها بوش الاب، بمثابة الاعلان عن ولادة قيام نظام عالمي جديد، وموت النظام العالمي القديم، وبالتالي موت كل التوازنات والاتفاقات التي كانت ترسم حدود العالم في ذلك الحين .سقط النظام القديم وسقطت كل الضوابط والكوابح التي كان يقوم عليها.

وفي الحقيقة بدا التركيز على ربط الاسلام والمسلمين والعرب بـ "الارهاب" منذ سنوات، لكنه ترسخ في اذهان معظم الاميركيين بعد التفجير في مركز التجارة العالمي في شباط / فبراير ١٩٩٣، حينها صب الحاقدون وقود كراهيتهم على النار المستعرة، وبدا الحديث عن" شبكة عالمية، فائقة التنظيم ومكونة من مجموعات الارهاب الاسلامي ومتربصة للانقضاض داخل الولايات المتحدة. وتحركت ـ آلة الاعلام الضخمة، ومن ابرز الامثلة ذلك الفيلم الهوليودي المصنف وثائقيا "الجهاد في اميركا Jihad in America "الذي اعده اليهودي المتعصب ستيفن آمرسون مع صديقه الاستاذ الجامعي العنصري المعروف دانيال بايبس (Pipes) مع اثنين من اصول عربية، البروفسور فؤاد عجمي الاستاذ في جامعة جونز هوبكينز، والبروفسور خالد دوران المؤلف الغامض لكتاب يعرف باسم "الاسلام"، والذي اصدرته احدى كبريات المنظمات الصهيونية واقواها (اللجنة الاميركية اليهودية). حينها حذر الباحث في الشؤون الاسلامية ريتشارد بوليات من خشيته في ان

الولايات المتحدة ربما تشهد نمو نوع جديد من معاداة السامية، قائم ليس على نظريات العرق السامي وانما على الاسلام. وكان هذا التحذير في حينه بعيد النظر، فقد كتب: "لسوف نصل في وقت ما الى عتبة عدم حاجة الناس الى ادلة لتصديق ان اي خطر ارهابي هو من متطرفين دينيين مسلمين."

وبالفعل، وفور انفجار المبنى الفيدرالي الاميركي في اوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥، سارع "خبراء الارهاب"، حسب وصف فواز جرجس، الى ربط العرب والمسلمين بعملية التفجير، والتي تبين بعدها ان المنفذ اميركي يميني عنصري. ومع ذلك لم تعدل هذه الصدمة النظرة التي عمل اليهود والاميركان المتصهينون على ترويجها، وهي ان كل مسلم هو قاتل محتمل. وفي هذا المجال تقول كارين ارمسترونج ان اولويات الولايات المتحدة في الشرق الاوسط، ليست حقوق الانسان والديموقراطية، وانما النفط والتفوقية الاسرائيلية، وان "خبراء الارهاب" في الولايات المتحدة يسارعون دوما الى ربط الاسلام الراديكالي بكل انواع العنف والارهاب قبل اي احتمال آخر، وهؤلاء يستغلون المعاناة الانسانية للضحايا واسرهم ومخاوف الشعب الاميركي. وتختم مقالها اللافت بالقول: ان المناقشات حول الحروب الدينية والتصادمات الحضارية لا تؤدي الا الى تحويل انتباهنا عن القضية الحقيقية، وهي ان القوي يريد مواصلة الهيمنة على الضعيف فيتلاعب بالحقائق للتأثير في الرأي العام ليحافظ من ثم على الوضع الراهن.

لقد بدا بوضوح ان السياسة الاميركية الشرق اوسطية، موجهة عن بعد باللوبي الاسرائيلي اليهودي القوي، مع ان اليهود لا يمثلون سوى ٢,٦ بالمئة من السكان، لكنهم مع هذا يمثلون ٢٠ بالمئة من كبار الاثرياء (المليونيرية)، وهم مستعدون لمكافأة كل اقتراع ملائم لـ"اسرائيل" وفقا لتوجيهات (AIPAC) اللجنة الاميركية لشؤون" اسرائيل."

وبتأثير هذا اللوبي الفعال يخصص الكونغرس لـ"اسرائيل" ما بين ٣ او ٥ مليار دولار سنويا، اي ما يوازي ٧٠٠ دولار في الحد الادنى لكل اسرائيلي سنويا، بينما تتلقى افريقيا كلها ما يوازي ٢ دولار سنويا لكل فرد.

الامبراطورية القلقة وحقائق القوة

شهد التاريخ قيام امبراطوريات عظمى، وشهد ايضا انحلالها واضمحلالها وتفككها. فهل سيحمل المستقبل مشهدا مماثلا بعد ان انفردت الولايات المتحدة الاميركية بالقوة والهيمنة في عالم ما بعد القرن العشرين؟كانت الامبراطورية الرومانية قوة عظمى هيمنت على الحياة الدولية في عصورها، وكانت فرنسا وبريطانيا كذلك، وحتى الامس القريب كان الاتحاد السوفياتي قريبا من هذه الصورة قبل ان يسقط بالسكتة القلبية، ويتفكك الى جمهوريات، والتي بدورها راحت تتشظى الى دويلات ولا تزال، واليوم يحتل النفوذ الاميركي المشهد العالمي ويمارس هيمنته وانفراديته بصلافة وتعال. فهل الولايات المتحدة بقدراتها وامكانياتها "مؤهلة" لقيادة

العالم واعادة رسم خرائطه وحدوده من جديد بما يضمن اعادة انتاج هذه القوة، واطالة عمر الامبراطورية الصاعدة؟ والى متى وكيف؟ وهل سيستمر الواقع الدولي الراهن بحيث لا تبدو في المستقبل المنظور قوى اخرى قادرة على المنافسة او المشاركة؟ ومن هي هذه القوى المرشحة للقيام بهذا الامر ولعب دور قوى المستقبل الصاعدة؟ وما هي مقوماتها؟ ومتى تبدأ لعبة التنافس الحقيقي وكيف؟ ثم ما الذي ستفعله الولايات المتحدة الاميركية بقوتها، وما هي صورة العالم الذي تريده؟ فعلى ضوء استراتيجيتها وادائها يطول او يقصر حلمها الامبراطوري؟

هذه هي بعض الاسئلة الصعبة التي تتصدى لمناقشتها مراكز الابحاث الدولية، ومستودعات الافكار وبيوت الخبرة الاميركية، وهي اسئلة بات بعضها يؤرق الادارات الاميركية منذ ما قبل ١١ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠١.ربما كانت عبارة كرمويل شديدة الدلالة حين قال: تسعة يكرهونني؟ وما هم اذا كنت العاشر الوحيد المسلح. وهي عبارة تستوحي ما قاله فيلسوف روما قديما: "دعهم يكرهونك ما داموا يخشونك". وهو قول استرشد به الاباطرة الرومان واستخدموه في المحافظة على هيبة الامبراطورية، وفي البطش والارهاب وابادة الشعوب، وهو ما حرك ضدها جميع انواع المقاومة التي ادت في النهاية الى تفككها وسقوطها.

وفي القرن السادس عشر كانت الدولة العثمانية قوة عظمى نجحت في فرض ارادتها على مساحات واسعة من اوروبا، لكن ما ان اطل القرن السابع عشر حتى اصبحت فرنسا القوة الاوروبية العظمى، وهي مع نابليون فيما بعد كادت ان توحد اوروبا تحت رايتها. ولم يطل الامر حتى برزت بريطانيا كقوة عظمى منافسة، ثم انتهت لحظة الهيمنة لبريطانيا الفيكتورية بصعود قوى جديدة ممثلة في المانيا والولايات المتحدة واليابان. وبعد الحرب العالمية الثانية نشأ وضع ثنائي القطبية تجاذب فيه الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة النفوذ، وبدأت الحرب البادرة، والتي انتهت بما يشبه الاحادية القطبية مع مطلع التسعينيات من القرن المنصرم.والقراء المدققة في سياسات الولايات المتحدة، في الربع الاخير من القرن الماضي، تبين بوضوح بعض المحطات التي لعبت دورا هاما في بلورة لحظة القوة والغطرسة التي تعيشها، والتي لم تكن في خط تصاعدي دائما. فمع نهاية السبعينيات، وانتهاء الولاية الاولى للرئيس كارتر ساد شعور بالاحباط والضعف وفقدان الهيبة بفعل الغزو السوفياتي لافغانستان، والذي اعتبر توسعا وتقدما للعدو على حساب المصالح الاميركية، بل وتحديا لسياسة الوفاق الدولي التي انتهجتها الادارات الاميركية المتعاقبة، تلى ذلك سقوط شاه ايران، حليف اميركا القوي في الخارج، وقيام نظام معاد لها، مما فاقم الشعور بالعجز وتراجع النفوذ. وعلى الرغم من الاجراءات الوقائية والشديدة التي اتخذها كارتر، الا ان الصورة لم تتغير، مما مهد الطريق امام المرشح الجمهوري

رونالد ريغن الذي خاض معركته بدعم من تيار المحافظين الجديد (New Conservatism) على ضوء شعارات متشددة تتبنى الدفاع القومي في مواجهة القوة السوفياتية. وهو ما نفذه من خلال تركيزه على البناء العسكري، بدءا من العام ١٩٨١ تاريخ توليه الحكم، مما اشعل الحرب الباردة الجديدة. دخل ريغن في مواجهة ايديولوجية وسياسية، وخاض تنافسا في البناء العسكري كان له الفضل في حسم الحرب الباردة لصالح الولايات المتحدة الاميركية بعد سنوات، وهو ما جعل ريغن يقول مع انتهاء ولايته الاولى عام ١٩٨٥ "ان الولايات المتحدة اصبحت عالية القامة مرة اخرى."ومع ذلك، بقي القلق كامنا في الاوساط السياسية والاكاديمية الاميركية فيما يتعلق بحقائق القوة، وبشكل خاص من منافسيها على المستوى الاقتصادي والتكنولوجي والتي تمثلت بقوى عالمية صاعدة، وقد عبر عن هذا القلق بوضوح المؤرخ والمفكر الاميركي البارز بول كينيدي في كتابه الضخم الصادر عام ١٩٨٨ "صعود وسقوط القوى العظمى"، والذي رأى فيه ان الولايات المتحدة تتراجع على المستوى الاقتصادي مقارنة بثلاث قوى هي اليابان واوروبا الغربية والدول الصناعية الجديدة، وان هذا التراجع اذا ما استمر سينعكس على الابعاد الاخرى لعناصر القوة الاميركية، وخلص الى ان الانفاق العسكري الكبير، فضلا عن الالتزامات الانفاقية الواسعة، اصبحت فوق طاقة الولايات المتحدة، وانتهى الى التحذير من ان الاتجاه الحالي سيؤدي الى ان تواجه اميركا نفس المشكلات والمصير الذي واجهته قوى امبريالية سابقة. الا ان رياح التسعينيات وتداعيات السقوط المدوي للاتحاد السوفياتي الذي جر جدار برلين، اظهر ان الولايات المتحدة قد خرجت منتصرة ومنفردة بقيادة العالم، الا ان الشك عند البعض، داخل مراكز الابحاث الاميركية والغربية عموما، بقي يرخي بظلاله، ذلك ان هزيمة الخصم لا تعني بالضرورة انتصارا مطلقا، خاصة اذا كانت هزيمة هذا الخصم ناتجة عن اختلالات بنيوية داخلية حادة كان يعاني منها.ومما زاد في هذه الشكوك ان الميزانية الاميركية، في عهدي ريغن وبوش الاب، سجلت تراجعا اذا ما قورنت بحلفائها، وهو تراجع ادى الى مضاعفة العجز الفيدرالي ثلاث مرات. فقد كانت الولايات المتحدة الاولى في الانفاق العسكري والتكنولوجيا والرؤوس النووية والطائرات المقاتلة في العالم، الا انها كانت في الوقت نفسه الثامنة في متوسط عمر الفرد، والثامنة في الانفاق على الصحة العامة، والثامنة عشر في معدل وفيات الاطفال، بل اظهر الفحص الاحصائي بما يتعلق بالكسب والعمالة والتعليم والجريمة، ان الولايات المتحدة تبدو وكأنها تتكون من امتين منفصلتين.وظهرت في المقابل مفارقات اخرى كشفت عن بروز عناصر قوة في العالم آخذة في منافسة الولايات المتحدة او مشاركتها، ممثلة في الاتحاد الاوروبي الذي تحول الى لاعب دولي مميز، مما جعل الساحة الدولية تتميز بالغموض والسيولة وعدم اليقين، بل بدا وكأن النظام العالمي اقرب الى

الفوضى منه الى النظام، بحيث بدت الولايات المتحدة مربكة وغير واثقة من قدرتها ومن دورها.ومع بداية الولاية الثانية للرئيس كلينتون تخطت الولايات المتحدة تلك الارباكات، وحدث ازدهار اقتصادي غير مسبوق، واختفى الخوف من التضخم، وازداد معدل النمو بنسبة ٤ بالمئة، وتولدت اكثر من عشرة ملايين فرصة عمل، وتعاظمت قدراتها في تكنولوجيا المعلومات، مما دعا البعض للقول عام ١٩٩٨ ان الاقتصاد الامريكي حقق ما يتجاوز المعجزة الالمانية واليابانية من خلال النمو الاقتصادي المتواصل للعام الثامن على التوالي، الامر الذي جعل الرئيس الاميركي في رسالته عن "حال الاتحاد" في ٢٠٠١/١/٢٧ يتباهى بالقول: "انه لم يسبق ان تمتعت امتنا بمثل هذا القدر من الرفاه والتقدم الاجتماعي مع القليل من الازمات الداخلية والتهديدات الخارجية، فنحن نبدأ القرن الجديد باكثر من عشرين مليون وظيفة جديدة، واسرع نمو اقتصادي، واقل معدل بطالة وفقر منذ ثلاثين عاما". هذا الواقع اظهر الولايات المتحدة كقوة منفردة "متنامية"، ثم كقوة لا غنى عنها، خاصة حينما نجحت في حسم بعض المشكلات الدولية، كما ظهر في حرب الخليج الثانية، وفرضها لاتفاق دايتون للسلام في البوسنة، وقيادتها للازمات المالية عام ١٩٩٧.دفعت هذه الصورة صناع القرار في الولايات المتحدة الى مراجعة النظرية التي تقول باحتمال صعود منافسين جدد محتملين (اوروبا، الصين، اليابان وروسيا)، الامر الذي ادى الى طرح السياسة الانفرادية والاحادية القطبية، ودفع باتجاه سياسة الهيمنة خاصة بعد ما تبين ان مسافة كبيرة اقتصاديا وعسكريا تفصل بين الولايات المتحدة ومنافسيها الذين تتهدد كل منهم عوامل ضعف بنيوية.

في هذا المناخ بدت الفرصة سانحة، بل بدت وقائع السياسة والاقتصاد في العالم كلحظة تاريخية مناسبة لاميركا لاعادة صياغة المشهد الدولي بما يتناسب ومصالحها، وهو ما تجسد باستراتيجية هجومية، وبسياسات احتوائية منفردة بدأت طلائعها بالبروز بشكل واضح منذ ما قبل احداث ١١ ايلول/ سبتمبر، وهي بعد هذه الاحداث اندفعت اكثر فأكثر في هذا المجال.

ان الحديث عن تداعيات ١١ ايلول لا يجب ان يختزل تلك التطورات الهائلة التي كان يشهدها العالم بعد سقوط جدار برلين، وافتقاد الولايات المتحدة "للعدو" التاريخي الذي وطنت نفسها على محاربته. فسقوط الاتحاد السوفياتي لم يكن يعني مجرد سقوط نظام في الحكم معين، ولا مجرد انحلال تكتل بين دول، ولا مجرد تفتت معسكر دولي، بل كان يعني بالدرجة الاولى سقوط نظام اجتماعي اقتصادي وفكري، نظام يطرح نفسه كمشروع حضاري للمستقبل، كان يبشر بعلاقات انتاج جديدة وبنظام سياسي وايديولوجيا جديدة، وبعبارة واحدة: بداية تاريخ جديد للانسانية .وبصفته مشروعا حضاريا للمستقبل كان لا بد ان يدخل في صراع مع النظام القائم الذي من جوفه خرج، وهو النظام الراسمالي. كان الصراع بين النظامين يشمل الاقتصاد والسياسة والقيم والفكر، وبما انه لم يتطور الى

صدام مسلح على غرار الحربين العالميتين بسبب الرادع النووي، فقد اكتسى صيغة صراع حول المناطق الاستراتيجية ومواطن الثروة، وايضا صيغة صراع ايديولوجي استعمل فيه الدين والعلم والثقافة.ان سقوط احد طرفي الصراع بدون حرب كان بدون شك انتصارا للطرف الاخر، المعسكر الراسمالي، لكنه انتصار من نوع خاص لم يكن نتيجة مواجهة يتحمل فيها كل طرف نسبة من الخسارة، ولا نتيجة معاناة تحمل كل طرف على التكيف مع نتائج المعركة، لكنه كان انتصارا مجانيا بدون ثمن، كان في الحقيقة الغاء للمباراة قبل اجرائها بسبب انسحاب غير متوقع لاحد الطرفين، فيما بقي الطرف الاخر كما هو بكل عدته العسكرية والاقتصادية، والاستراتيجية والعلمية والفكرية. وايضا بقي في حالة تعبئة وتجنيد، ولكن بدون عدو، لقد خلت له الارض وخلا بها، وتلك مشكلة من نوع جديد.

لقد وجدت الولايات المتحدة الاميركية نفسها، فجأة، دولة، بل معسكرا وترسانة من الاسلحة، بل تحالفا دوليا بنى سياسته واقتصاده واستراتيجيته وثقافته ورؤاه المستقبلية على اساس انه يواجه عدوا يتربص به، فاذا بالعدو ينسحب، بل يختفي ليظهر وراء خصمه يطلب الانخراط في نمط حياته ليصير جزءا منه وحليفا له. مشكلة ليست سهلة، على حد تعبير محمد عابد الجابري، مشكلة "الانا" الذي لا يعرف كيف يتعرف على نفسه الا من خلال "آخر" يواجهه، فاذا هو يفقد فجأة هذا" الآخر" الذي يتحدد به. فماذا يمكن ان ننتظر من هذا "الانا"؟ هل ننتظر منه ان يفكك ذاته ويعيد تركيبه؟ كيف؟ وكيانه جميعه موجه ككل وكأجزاء الى مضادة كيان "الاخر" ككل وكأجزاء؟ ان بقاء الولايات المتحدة بدون "آخر" خارجي لن يكون الا على حساب وحدة "الانا" فيها، وهي مجموعات من اصول واثنيات مختلفة وثقافات متعددة، ومصالح متنوعة، فكيف يمكن المحافظة على وحدة "الانا" فيها بدون "آخر" يمثل العدو المشترك.

هذه الاشكالية البنيوية الجديدة ترافقت مع تنامي نفوذ التيار اليميني داخل الادارة الاميركية، الذي يمثل امتدادا لتيار المحافظين الجدد الذي شهد منذ الثمانينات مع رونالد ريغن تقدما ملحوظا، وهو التيار الذي تبنى مفاهيم الهيمنة والمواقف الانفرادية، وقد ظهر هذا واضحا في عدد من المواقف، منها:

ـ انسحاب الولايات المتحدة الاميركية المنفرد من اتفاقية الصواريخ المضادة (Anti Balistic Missiles A.B.M) والذي اثار مخاوف حلفاء اميركا، فهذه الاتفاقية كانت تعتبر اساس التوازن الاستراتيجي في العالم.

ـ عدم تصديق الادارة الاميركية على بروتوكول كيوتو حول التغييرات المناخية في العالم.

ـ مقاطعة مؤتمر التصديق على معاهدة حظر التجارب النووية، ومؤتمر المراجعة الذي عقد حول الاسلحة البيولوجية.

ـ رفضها التصديق في الكونغرس على معاهدة روما الخاصة بالمحكمة الجنائية

الدولية.

ـ تبني سياسة انحياز كامل وبعيد المدى في سياستها الشرق اوسطية لصالح "اسرائيل"، مما ادى الى احراج حتى حلفائها العرب.

هذه المواقف وغيرها تؤكد ان احداث ١١ ايلول لم تحدث تحولا في السياسة الاميركية التي حافظت على اتجاهها في العمل المنفرد وتأكيد الهيمنة، فالدول العظمى، حسب تعبير محمد حسنين هيكل، لا تغير استراتيجياتها بسهولة، لان هذه الاستراتيجيات لا تصنع بالالهام او النزوة، ولا تتقرر بقيام حكم وسقوط آخر، ولا يؤثر فيها ان يذهب رئيس ويجيء رئيس، فالاستراتيجيات املاء جغرافيا وتاريخ، وقد تتغير السياسات المعبرة عنهما للتلائم مع متغيرات الظروف، لكن الاستراتيجية تعلم دارسيها ان الاهداف يمكن الاقتراب منها عن طريقين: اقتراب مباشر او اقتراب غير مباشر، مع بقاء الهدف في الحالتين ظاهرا امام عيون طالبيه حتى وان اخذتهم" التضاريس" الى الطرق الدائرية، وهو ما يحصل اليوم: اقتراب مباشر نحو الهدف يعتمد مفهوما جديدا هو الضربات الوقائية Preemptive attacksضد هجمات محتملة وعدو مفترض.

ادلجة العداء وتنامي دور اليمين المحافظ

يشير الاستعراض السابق لوقائع التعثر والصعود الاميركي، على صعيد امتلاك مصادر القوة والانفراد بها، الى التزامن الحاصل مع نمو دور اليمين الديني والخطاب الايديولوجي منذ ولاية ريغن، وهو الخطاب الذي اتجه نحو التجذر بعد سقوط جدار برلين وتهاوي الاتحاد السوفياتي، وفقدان الولايات المتحدة للعدو التاريخي الذي يشكل وجوده حاجة استراتيجية كما اسلفنا، وهو الامر الذي كان يتجه نحو البحث عن عدو "بديل" تمثل بما اسمته الميديا الاميركية بـ "الارهاب" و"محور الشر"، فيما بعد، وهو ما تبنته الادارة الاميركية مع بداية التسعينيات، وهذا "العدو" المفترض، ولاسباب عديدة، تمثل بالاسلام، وجاءت احداث ١١ ايلول/ سبتمبر لتدفع بهذا الاتجاه الى ابعد مدى، ومعه نجحت قوى اليمين المتصهين في الربط المحكم بين الارهاب والمقاومة الباسلة للشعب الفلسطيني، وهو ربط لم تتجرأ عليه الادارة الاميركية السابقة، الا ان الامر لم يتوقف عند هذه الحدود، بل برزت في الافق مظاهر مقلقة هيمنت على الخطاب السياسي والاعلامي الاميركي دفعته باتجاهات عنصرية وايديولوجية صارمة ضد العرب والمسلمين، ومنها نرصد التالي:

ـ زلة اللسان التي اشار بها بوش الابن الى ان اميركا تخوض حربا صليبية ضد الارهاب.

ـ تصريح جون آشكروفت، وزير العدل الاميركي الحالي، الذي اعتبر فيه ان الاسلام دين يطلب فيه الله منك ان ترسل ابنك لكي يموت من اجله، والمسيحية ايمان يرسل الله فيه ابنه لكي يموت من اجلك.

ـ تسريب التقرير الصادر عن مركز استشاري للبيت الابيض يتحدث عن امكانية توجيه ضربات نووية محدودة ضد دول "محور الشر."

ـ طلب الادارة الاميركية من السعودية ومصر وباكستان اعادة النظر بالمناهج التعليمية الاسلامية في معاهد التدريس الديني.

ـ صدور تقرير راند كوروبوريشن، مركز الدراسات التابع للبيت الابيض، الذي يعتبر السعوديين ناشطين على كل المستويات في السلسلة الارهابية، ويخلص الى اعتبار العربية السعودية دولة "تساند اعداءنا وتهاجم حلفاءنا وهي بذرة الارهاب والمحرك الاول له والخصم الخطر"، ويوصي التقرير، الذي صاغه لورنت مورفابيتش، بالاستيلاء على حقول النفط، وتجميد الارصدة السعودية في البنوك الاميركية والمقدرة بـ ٦٠٠ بليون دولار، واقامة جمهورية اسلامية في المنطقة الشرقية التي توجد بها حقول النفط وتسكنها اغلبية شيعية.

ـ صدور سلسلة من التصريحات عن اليمين المسيحي الاصولي الاميركي تعتبر الاسلام انه الشر الذي يجب مكافحته، وتصدر هذه الحملة ثلاثة من ابرز شخصيات اليمين البروتستانتي المقرب من الرئيس، والذي يملك وسائل اعلام واسعة الانتشار ومن نماذج هذه الحملة:

*ما قاله القس المحافظ المتشدد، وحليف جورج بوش الانتخابي، جيري فالويل الذي يمثل ١٦ مليون انجيلي اميركي من الطائفة المعمدانية، حين وصف النبي محمد (ص) بالارهاب ورجل الشر، في حديث لشبكة سي.بي.اس.

*وقبله، قال القس البروتستانتي جيري فينزاكد في حزيران ٢٠٠٢ خلال المؤتمر السنوي للمعمدانيين، ان النبي محمد (ص) كان يمارس الاستغلال الجنسي للاطفال، فهو اتخذ ١٢ زوجة آخرها في التاسعة من العمر.

*وقبله، اعتبر بات روبرتسون، مؤسس الائتلاف المسيحي، ان النبي محمد (ص) متعصب بشكل مسعور، وان الاسلام ليس دينا مسالما يرغب بالتعايش.

*وكان القس فرانكلي غراهام، ابن الممثل الشهير بيلي غراها، اول من دشن هذه الحملة في تشرين الاول الماضي، وهو المقرب من الرئيس بوش، حيث اعتبر حينها الاسلام ديانة الشر لانه يدعو الى قتل الكفرة من غير المسلمين.

هذه التصريحات الحاقدة اثارت ردود فعل لدى المنظمات الاسلامية الاميركية التي طالبت الرئيس بوش بادانتها، بل ان ردود الفعل شملت العديد من رجال الدين المسيحيين المعتدلين وبعض المثقفين، بل ان افتتاحية الواشنطن بوست ادانت هذه الهجمة ضد الاسلام وطالبت الرئيس بموقف يدين هذه التصريحات الارهابية والعنصرية، اذا كان صادقا في مقولة التسامح خاصة ان هؤلاء والتيار الديني اليميني عموما مقرب من الرئيس، وهو غالبا ما يتحدث بلغتهم. ومع

ذلك بقي بوش صامتا.الا ان قمة الاستخفاف بالعالم الاسلامي وبالشرعية الدولية تمثلت بتوقيع الرئيس بوش على القانون المتعلق بالسياسة الخارجية، المعروف باسم القانون 1646، والذي يتضمن مواد ترغم الادارة الاميركية على الاعتراف بالقدس الموحدة باعتبارها العاصمة لـ"اسرائيل"، ورغم البيان التوضيحي الصادر عن البيت الابيض والذي يقول ان سياسة اميركا بالنسبة للقدس لم تتغير، الا ان الحقيقة تقول: ان البيان "التوضيحي" لا يتمتع بقوة القانون.

هذه المواقف سبقها تمهيد فكري واستراتيجي بدا مع التسعينيات، وتعام بعد ايلول. فقبل اطروحة صدام الحضارات لصموئيل هنتنغتون التي نشرها في عام ١٩٩٣، نشر باري بوزان في تموز ١٩٩١ مقالة بعنوان (السياسة الواقعية في العالم الجديد) يطرح فيها تصنيفا جديدا للعالم. فبعد ان كان العالم في ظل الحرب الباردة ينقسم الى (العالم الاول) المعسكر الرأسمالي، (والعالم الثاني) المعسكر الشيوعي و(العالم الثالث) مجموعة البلدان الخارجة عن التبعية المباشرة، اصبح هذا التقسيم، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، لا معنى له بانفراط عقد العالم الثاني، ولم يعد من مبرر لبقاء التصنيف فيما يختص بالعالم الثالث؟ ما يريد الكاتب الوصول اليه هو تصنيف جديد يقسم العالم الى قسمين: مركز واطراف. اما المركز فهو كتلة رئيسية من الاقتصاديات الرأسمالية المسيطرة على العالم، واما الاطراف فهي مجموعة من الدول الاضعف من النواحي الاقتصادية والسياسية، تتحرك ضمن نمط من العلاقات التي ينسجها المركز في المقام الاول. ويخلص الى ان دول الاطراف الضعيفة المفككة، فيها مصدران يهددان امن الغرب وهويته وحضارته، اولها الهجرة، وثانيها هوياته الحضارية المختلفة عن هوية الغرب. وبما ان الهجرة آتية من جنوب البحر المتوسط فالهوية المرشحة للتصادم مع الغرب هذه الهوية الحضارية الاسلامية، لذلك فالامن العالمي سيكون محكوما بما يطلق عليه صراع الهويات الحضارية، والذي يبدأ بـ"الحرب الباردة الاجتماعية بين الغرب والاسلام."تلقف صموئيل هنتنغتون هذا التحليل ليصيغ اطروحته المعروفة بـ" صدام الحضارات" ونشرها بداية عام ١٩٩٣، ويعتبر فيها "ان الفروق بين الحضارات ليست فروقا حقيقية فحسب، بل هي فروق اساسية ايضا. فالحضارات تتمايز الواحدة عن الاخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والاهم بالدين"، ولان الاسلام والمسلمين يشكلون حضارة واحدة، ولانهم خاضوا حروبا وصراعات مع جيرانهم ومنافسيهم، فهم يمثلون خطرا جذريا على الغرب، ويقول "ليس صحيحا ان الاسلام لا يشكل خطرا على الغرب وان الاسلاميين فقط هم الخطر، ذلك ان تاريخ الاسلام، خلال اربعة عشر قرنا، يؤكد بانه خطر على اية حضارة واجهها وخاصة المسيحية"، وفي هذا السياق يخلص الى "ان للاسلام حدودا دموية" مشيرا الى النزاعات مع الصرب الارثوذكس في البلقان، ومع الهندوس في الهند، واليهود في "اسرائيل"، والكاثوليك في الفيليبين."

قبل هنتنغتون، كان للمؤرخ اليهودي البريطاني برنارد لويس اطروحة مشابهة في مسالة الصدام الحتمي بين الاسلام والغرب، في مقالته الشهيرة "جذور الغضب الاسلامي"، معيدا فيها اسباب هذا الصدام الى عناصر سياسية وحضارية وديموغرافية، ولاعتبار المسلمين كيانا حضاريا صاغ علاقته بالغرب بالسخط والعنف والحقد واللاعقلانية. هذا بعض من التمهيد الفكري المبرمج الذي سبق ١١ ايلول/ سبتمبر، والذي جاء اثر انتهاء الحرب الباردة، التي جاءت كهدية مجانية وفرت فرصة نادرة للولايات المتحدة كي تعجل في فتح العالم امام شركاتها الكبرى، وهذا ما لم يخفه حينها انتوني ليك، مستشار الامن القومي للرئيس كلينتون، حينما اكد عام ١٩٩٣ قائلا: "خلال الحرب الباردة احتوينا تهديدا عالميا لديموقراطيات السوق، الان يجب ان نعمل لتوسيعها". كان من الواضح ان عملية الاحتواء هذه تتطلب تخطيطا دقيقا ومبرمجا، وهذا ما قامت به مراكز الابحاث ومستودعات الفكر وبيوت الخبرة الاميركية التي راحت تنشئ عدوا افتراضيا تمثل بالاسلام والمسلمين، الا ان الهدية الذهبية تمثلت فعلا بما حدث في ايلول/ سبتمبر فيما بعد، فقد تعاظمت الحملة مستندة الى هول ذلك الحدث الذي جعل فوكوياما يشبه المسلمين الاصوليين بفاشيي العصر واعتى مناهضي الحداثة.لا شك ان في هذه الطروحات الكثير من التضليل، والقليل من الحقائق والموضوعية. والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: لماذا الاسلام؟ وما المقصود بالاسلام؟ هل المقصود الدول ام الشعوب ام الثقافة والحضارة؟ولماذا لا يتجه الحديث الى المسيحية والبوذية واليهودية، حين يطرح موضوع الحداثة وصدام الحضارات او حوارها؟ هذا التخصيص نحو دين واحد يحمل على الشك في مدى الموضوعية والتجرد الذي تطرح به المسألة؟بل ان طرح الموضوع على هذا الشكل يعتبر هروبا من السؤال الحقيقي عن اسباب كره العالم لاميركا، وهو السؤال الذي برز بحدة بعد ايلول وجاء الجواب مضللا حينها على لسان بوش الابن وصناع القرار:ان الذين يهاجمون اميركا يدفعهم الحسد والغيرة من الرفاهية والديموقراطية التي تنعم فيها الولايات المتحدة، وهو الجواب الاكثر شعبية وتعميما اليوم، لكن هذا الجواب لا ينفي حقيقة ان اليمين المسيحي المتصهين، الذي يزيد اتباعه عن الثلاثين مليونا، يشكل اليوم لحمة الادارة الجديدة والحزب الجمهوري في المرحلة الراهنة، وقد تغلغل العديد من غلاته في وزارة الدفاع والبيت الابيض، وهم بالاضافة الى تطلعاتهم للهيمنة والتوسع والانفراد في القرار الدولي، مؤمنون بان "اسرائيل" ارض الميعاد التي وعدها الرب لليهود، وهم مهجوسون بعقيدة عودة المسيح المشروطة باجتماع اليهود في فلسطين ومهووسون بحرب الألفية) الهرمجدون) التي سيبيد فيها المسيح العائد قوى الشر، ويعتبرون ما يجري في ارض فلسطين ليس الا ارهاصات لما يتوقعون انه سيحصل. وعلى الرغم من كراهية اليهود العاديين لهؤلاء لمحاولتهم تنصيرهم لانقاذهم من الابادة في

"هرمجدون"، الا ان اليهود المحافظون، ولاسباب مكيافيلية، وجدوا مصلحتهم المرحلية تقتضي التعاون والتحالف معهم، وهي مصلحة مشتركة في كل حال، لذلك كان ائتلاف اليمين الاصولي المسيحي واللوبي اليهودي نقلة نوعية سمحت باملاء المواقف على الادارة الاميركية فيما يختص بفلسطين والعراق.حقائق القوة هذه لا تلغي وجود بؤر ضعف بنيوية في النظام والمجتمع الاميركي، الذي يهمين ١٠ بالمئة من سكانه على ٧٠ بالمئة من ثروة البلاد، لا يتبقى لغالبية السكان سوى ٣٠ بالمئة من ثروة البلاد الصافية، علما ان التفاوت يشمل حتى الفئة الغنية، اذ يملك ١ بالمئة من السكان الاغنى ٣٨,٩ بالمئة من ثروة البلاد. هذا التفاوت اظهر وجود ٣١,١٤ مليون فقير، حسب التعريف الرسمي للفقر عام ٢٠٠٠، والذي يتركز في الاقليات السوداء والمتحدرة من اصل اميركي لاتيني وآسيوي، هذا التفاوت الرهيب في الثروة والدخل يؤدي داخل أي مجتمع الى تناقضات تنتج عالمين يصارع بعضهما البعض، تعمل فيه الطبقات المتوسطة والفقيرة الى تبني سياسات اجتماعية اكثر عدلا، مقابل الطبقة الغنية التي ستدافع عن مصالحها، بل وتعمل على تحسينها، وهو ما سيولد تناقضات داخلية خطيرة في المستقبل، تتهرب من مواجهتها الادارة الاميركية من خلال طرح تحديات خارجية ووجودية، هذا بالاضافة الى حقيقة يجري اغفالها وتتمثل بهيمنة الواسب (W.A.S.P) الانكلوساكسون البيض، على ابرز مصادر ومفاصل القوة والاقتصاد والسياسة.جدلية الدين والسياسة، الايديولوجيا والاقتصاد والمصالح، ستبقى، بانتظار ذلك، تحرك المواقف الاميركية، والقوة تغري حقا بالهيمنة، لكن لا يوجد قوة مطلقة، فالقوة دائما نسبية ومرهونة بظروفها وبالمعادلات الداخلية والخارجية التي تسمح لها باعادة انتاج نفسها، وهي بالتاكيد ليست معادلات ثابتة او نهائية، لذلك يبقى القلق يرافق كل امبراطورية مهما تعاظمت قوتها. المشكلة ان هجمات 11 ايلول/ سبتمبر اتاحت لهذا الاتجاه ان يقدم برهانه على صحة الافتراضات المبسطة والتعميمية. فالاسلام يتجسد سياسيا في كيانات ودول ومنظمات وهيئات متعددة، لا تمثل رؤية سياسية او استراتيجية، بل وحتى فكرية واحدة، كذلك هو المحمول الذهني لكلمة" الغرب"، فاوروبا وروسيا والصين تقدم قراءة مختلفة لما تقدمه الولايات المتحدة وتمثله في تعاطيه مع عالم اليوم ومنه الاسلام. فالكلمات الكبرى المبسطة والتعميمية" كالاسلام والغرب" فيها الكثير من التضليل والايديولوجيا، والقليل من الموضوعية والعقلانية.كما ان هذا سيخلي العالم للاقوياء الآخرين، فتحل الفوضى التي ستطاول الارض الاميركية فيما بعد. الموقف الثاني يتمثل في التفرد في القرارات، وتقوم هذه المقاربة على ان تتخذ الولايات المتحدة مواقف وقرارات تتناسب ومصالحها القومية اولا، وهذا ايضا سيؤدي لمزيد من الفوضى العالمية وسيؤذي وضع الحلفاء. اما المقاربة الثالثة فتقوم على المزيد من التورط في العالم، والمساهمة في حل مشاكله بما يحفظ مصالح الولايات المتحدة، وهي المقاربة التي يبدو ان

بوش الابن قد قرر السير بها.وفق هذه الرؤية فان دور "ملاك الرب" الذي تضطلع به اميركا، لا بد ان يكون مزدوجا: يد ممدودة لمصافحة الاصدقاء والاوفياء، وقبضة حديدية ردع الاشرار وحصرهم في معقل شرهم، "فاما معنا واما مع الارهاب"، حسب تعبير بوش الابن، ولا مكان لمنزلة ثالثة.هذه الرؤية توفر مساحة كبيرة من الرضى الاخلاقي عن النفس، فهي لا تفعل سوى ان تؤدي واجبها. وباستثناء الهزيمة المذلة في فيتنام (٦٠ الف قتيل اميركي) فان اميركا يطيب لها ان تتصور انها تؤدي دور "الشريف" في افلام الكاوبوي، تفخر دوما بنتائج تدخلاتها، بدءا من الفليبين التي احتلتها منذ ١٨٩٩ لتحررها من الحكم الطاغوتي الاسباني، ولتحبوها منذ ١٩٣٥ بأول دستور ديموقراطي في تاريخها وتاريخ آسيا، ومرورا بالمانيا النازية التي حررتها من نظامها النازي ونزعتها العسكرية المزمنة، وانتهاء باليابان التي اجبرتها ــ لصالحها ــ على ان تكون ديموقراطية وتحديثية على الطريقة الغربية. وهي كما تفخر بتدخلاتها العسكرية، تفخر بتدخلاتها الاقتصادية، فحصارها للدول الابليسية الممثلة بمحور الشر "حصر دودة الشر" في شرنقتها.وفي المقابل، فان انفتاحها الايجابي على التنانين الصغيرة التي كانت مهددة بالابتلاع من جانب النمر الصيني او الدب الروسي، مكنها، خلال عقود قليلة، من ان تكسر حاجز التخلف وتحقق، بعد اليابان، "معجزة آسيوية". لكل هذا فالرؤية المركزية الاثنية تشرع مبدأ التدخل وتلبسه عباءات اخلاقية ولاهوتية مضمرة، ونادرا ما يتم استحضار هذه النزعة الى ساحة الوعي النقدي في اميركا وفي العالم، ذلك ان الولايات المتحدة مصنع كبير لانتاج وتصدير التصورات عن نفسها وعن العالم، فهي تتحكم بنحو ٧٥ بالمئة من دفق المعلومات في العالم، وهو ما يتطلب قراءة نقدية صارمة لتنقيتها من المعطيات المؤدلجة وما اكثرها.وبعد، هل يعني هذا ان اميركا قضاء وقدر؟ وهل الامركة هي مستقبل العالم المحتوم؟ وماذا يمكن أن نفعل؟ وما هو المطلوب؟

بالتأكيد ليست أميركا قضاء وقدرا، ومن التعسف القول ان باب المستقبل مفتوح للامركة فقط. فالتاريخ شاهد على صعود دول وامبراطوريات كما هو شاهد على هبوطها وتفككها، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي استفاقت به البشرية على وقع الانهيار السريع للمنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي وهي تملك ما تملك من قوى عسكرية مرعبة.وعالم اليوم الذي نعيش احادية قطبية لم يسلم الرايات لاميركا بعد، فالممانعة تطل براسها هنا وهناك، والتناقضات في داخل المعسكر الغربي متعددة وآخذة في التبلور، بل آخذة في الظهور الى العلن في كل من اوروبا والصين وحتى روسيا، ناهيك عن دول العالم الثالث والعالم الاسلامي، الاكثر تضررا من هذه العولمة المتوحشة والسياسة المنحازة للعدو الاسرائيلي. المطلوب تعديل تركيبة مجلس الامن وتشكيل مرجعية شرعية دولية تقطع الطريق على هذا "التفرد"، وتذهب باتجاه صياغة اسس النظام الدولي الجديد، وهو

مطلب كفيل بالحد من الاستفراد والهيمنة، وهو
لا شك سيكون عنوان نضال الشعوب في هذا
القرن الجديد.